لوحة الفنان

◆ سعيد رمضان / مصر

أحاط الغموض بليلته، و مع انكسار أخر ضوء لنهاره، لاحظ أن الكآبة بدأت تتسرب إليه، شعور اضطرب له ومنعه من التنفس بشكل طبيعي، ربما هو الضيق الذي يخنق، لكن كثيرا ما انتابه ضيق لم يمر معه بحالته تلك، إنه يبحث وينقب عن الغموض المحيط بليلته، محاولا أن يكون طرفا بعيدا، لاعلاقه له بما يشعر به، ليقف تماما وبوضوح ويقين، على أسباب كآبته، لكن كل شيء كان يتبعثر... وهو.. هنا وهناك.. يمتطي الفوضى.. ولا يرى سوى رؤية ضبابية، وعندما يداهن الزمن، ويستدعي ساعات النهار المبعثرة، ليجد خيطا في تلك الانعطافات المتتابعة لمكونات يومه، لا يجد سوى خطوط منفصلة وجزئيات متباعدة بعنف ودون حيوية، تستعصي على أيِّ تجميع، ولا تخلق أيِّ مجال للاتصال، كأنه يبحث في فراغ أبدي وحيداً حائراً عن أشياء يعلم بغموض إنها موجودة ولكنه لا يعرفها...

لقد خرج مثلما يخرج كل يوم، ليروى ظمأه من المشي الذي يعشقه، وجلس على مقهى عابق برائحة دخان الشيشة امام الكورنيش، فشرب قهوته، متأملا التكوينات الرشيقة للفتيات، وعربات الحنطور وهى تتهادى كأنها محمولة على بساط الريح، اتصل ببعض الأشخاص واجتمع بأصدقاء وتحدث معهم في الفن والمعارض، ولوحات عظماء الفنانين، دون إخفاء رغبته في أن يكون واحدا منهم، ثم ترك الأصدقاء، وسار في طرقات أسكندرية، سير من لا تكبله القيود، بلا ساعات محددة، يعمل فيها شيئا معينا، لا يسعى للحصول على كل جديد يظهر في السوق، مستخفا بهؤلاء المتزاحمين على مصالحهم، والراكضين مع بزوغ الفجر لأعمالهم، يبدع عندما تسيطر عليه رغبة في الإبداع، دون زواج، رافضا كما يقول أن تتوقف حياته على فهم المرأة لنياته... حتى لو كانت هذه المرأة كليوباترا انبعثت حية أمامه من أغوار البحر، مرتدية غلالة تتالق فيها بسحرها الأسطوري. تنهد.. كانت هذه حياته كل يوم، على نفس الوتيرة يعيش، فمن أين جاءت الكآبة التي تغلفه ؟؟

ليس من فكرة كونه فنانا لم يصل بعد لما يريد من شهرة وعظمة، صحيح أن لوحاته لاقت إعجابا من بعض الفنانين، فحق له وضع قدمه في جزيرة الفن الموحشة، لكنه يدرك يقينا انه سيظل هامشيا، حتى يبدع لوحته الخاصة، التي سوف تميزه على مر الزمان، فهل جاء حزنه من هذا الإدراك ؟ أم يوجد إحساس متوغل عميقا في نفسه بأنه قد تجمد ووصل فعلا لحدوده ؟؟ ارتعد.. وشعر برعب من هذه الفكرة التي ترفرف بأجنحة شائكة داخل عقله، لكن.. ربما لا يكون حزينا فعلا، وأنه يتخيل حزنه، ربما أراد في أعماقه أن يدفع نفسه لحالة تثير فيه شعورا انفعاليا، يجعله قادرا على صب أحاسيسه فوق لوحة وبعمق ينتج تخيلا يفوق الخيال الواقعي ؟؟؟

ربما.. ربما.. أشياء كثيرة ربما.. ولاشيء مطلقا مؤكدا.. أتكون السكينة لا تتسامى إلا بوجود حالة

الاضطراب التي تعكرها ؟ أم أصبح مجنونا فعلا ؟؟

شعر باختناق فخرج.. سار على الكورنيش بشرود وهو يتأمل البحر.. الأمواج التي ترتعش على حوافها أنوار فضية، تهدر بعنف ضاربة الصخور بقسوة، بدت له قلعة قايتباى، ورغم الأضواء، إلا أن الظلال السوداء أحاطت بها، وتراءت له من هذا البعد كجسد مجهد وحزين، قابع في مكان منعزل، لا يشرق بأي تناغم. عاد يتأمل الأمواج بشرود..ربما يوجد الآن في مكان ما شاعر يترنم بقصيدة مشكلا فيها بحرا يتماوج بالنشوى، وأسماكا ترقص في الشباك رقصة النهاية، أو موسيقي يعزف أنغامه الوحشية على أوتار سخرية الحياة والموت، أما هو فينبغي أن يعبر عن لحظات الطبيعة البكر، التي تنبعث كأجمل صدق بهذه الدنيا، وعليه أن يمتطي حصان الخيال الجموح، مطاردا فجرا يشرق بجمالياته التي تشبه ألوان قوس قزح، في نهايته تكمن كنوز مجهولة، مغلفة بجلال أسطوري..

كان يؤمن تماما بأنه ليس كالناس العاديين، وأنه من سلالة الجبابرة الذين ولدوا وفي قلوبهم شرارة من النار، وامتلك مثلهم سحرا لا يملكه الأخرون، سحر خلود اللحظة، وبينما الحياة تتحرك، والأحلام تخفت وتذوب في ضجيج يومي متغير.. والأجسام تكبر وتهرم وتفقد تكوينها المتناسق، فإنه بفرشاته يمكنه أن يخلد الجمال، ويقبض على اللحظة، ناقلا للوحاته انفجار الضوء الذي لا يبهت.

أحس بقوة خفية تدفعه للإبداع، عاد لشقته، وبشكل مجهول وغامض شعر بأنه عائد ليقابل مصيره، كأن القدر دفعه في هذه اللحظة للعودة، وأي خلاص من ذلك مستحيل...

جلس أمام لوحته، حينها كف عن التفكير وأنصت إلى السكون، انفصلت روحه واندمجت مع الصمت، واستغرق في أعماق نغمات خفيه لا يسمع وقعها بالأذن، هناك على حافة السكون والهدوء اللذين يشبهان الموت، غاص منتشيا في سحر الحلم...

كان الشكل الذي بدأ يظهر على اللوحة هو لفتاة صغيرة واقفة على رصيف ما، تنظر نظرة جانبية لوجه غائم بلا ملامح... حاول أن يعطى ملمحا ما له.. لكنه عجز.. فتوقف.. تأمل وجه الفتاة.. انتابه شعور غريب بأنه رأى هذه الفتاة من قبل.. لكن أين؟

لعن نفسه.. هل هو فنان حقا؟؟ أليس الوجه الفني يحمل ملامح وجوه عديدة؟؟ لماذا يبحث عن الواقع والمفترض أن يسبح فيما وراء الواقع، في منبع الجمال الذي يتفجر سحرا من تلقاء نفسه؟؟ تجول في الشقة ساخطا.. سيظل أبدا محدودا.. فنانا على الهامش، لن يقترب أبدا من أساطين الفن، أو يلمس عبقرية الخلود، دائما أسفل السفح، يرنو إلى القمة، عاجزا عن الوصول إليها، لم لا يختصر الطريق و يترك كل شيء ؟؟ لوحاته وألوانه ومرسمه، ويعيش حياة هانئة بلا أفكار تضنيه أو أعماق تشده لظلامها ؟؟ لماذا يعذب نفسه دائما بالضرب في بيداء المتاهة، ملبيا نداءات قد تكون زائفة ؟ أو منصتا لأصوات منبعثة ربما من أعماق الجنون؟؟

تنفس بعمق محاولا تهدئه نفسه، لاعنا شيطان الشك، الذي يحفر في عقله بإزميل تشكل داخل أتون جهنم، جلس متجنبا النظر للوحته، لكنه وجد نفسه مدفوعا بقوة غير طبيعية وبلا حرية إرادة أو بصيرة، لأن يرفع نظره ويتأمل الفتاة الصغيرة، التي قفزت من أعماق المجهول، كجنية من الأساطير، لا لتلبي رغباته، وإنما لتقبض على روحه..

صرخ بصوت مبحوح لا يتجاوز صدره :

– من انت ؟؟؟

نهض واقترب منها متأملا نظراتها، وهى تتجه ناحية الوجه الآخر الغائم بدون ملامح، تأمله، وشعر بأنه لن يعرف الفتاة ولماذا رسمها أو معنى نظرتها، إلا بتحديد ملامح هذا الوجه الغامض، عاد يتأمل لوحته.. قد يكون فيها توترٌ.. لكن ليس فيها توازنٌ بين الفراغات، إن عليه أن يوجد التوازن حتى تخلق اللوحة موسيقاها الخاصة النابعة من أزمتها، حينها فقط سيعرف معناها ويقف على خباياها.. أمسك بالفرشاة وغمسها في الألوان، اقترب من الوجه محاولا البدء في تحديد ملامحه، لكن يده جمدت وشعر بضياع الأشكال منه، وأن الانفعال هرب تاركا إياه وحده، ليس قرير العين، وإنما مغموسا في الخواء البارد، استشاط غيظا.. قذف

بالفرشاة، وبحث عن شيء يحطمه، فوجد أمامه مقعدا، ركله صائحا :

– ملعون انت.. الم تجد سوى هذا المكان لتقعد فيه عاجزا كالموتى ؟

قهقه ساخرا وهو يتجول في شقته كالمجنون، أحس برغبة طاغية لأن يسحق ويدمر، أن يطيح بشيء ما.. من الوجود إلى مجاهل العدم، لكنه شعر بأن الجدران هي التي تسحقه، فخرج مدفونا في الصمت الذي يطويه إلى ليل حالك لاينتهي، سار في الظلام.. ثم ركض.. دافعا صدره إلى الإمام كأنه يدفع شيئا ثقيلا جاثما على قلبه.. استمر يركض ويركض.. يدفع ويدفع.. انتابه تعب مضنٍ، فجلس على رصيف ناظرا حوله بيأس.. إنه الآن في أعماق المدينة الأسطورية.. الإسكندرية.. التي صنعت التاريخ وعاشت فترة مع التاريخ وهاهي الآن صامتة، مستسلمة لقدرها في أحضان البحر، مثله تماما.. مستسلما لمصيره عاجزا عن تغييره.. طغى عليه فجأة شعور مرير بوحدته، فدفن وجهه بين يديه و جسده يتلوى من العذاب.

عندما هدأ، نهض ببطء، وسار يجوب الطرقات، لم يكن لديه رغبة في البقاء في مكان واحد، شعر بدافع خفي لا يعرف مراميه يدفعه للتجوال، قادته قدماه إلى القلعة، ظل واقفا أمامها يتأملها متذكرا تاريخها، متخيلا شكل الرجال الذين بنوها والرجال الذين ماتوا وهم يدافعون عنها. هز رأسه عائدا مرورا بحلقة السمك، سالكا بعدها طرقا جانبية وعلى مهل يتأمل البيوت القديمة بأبوابها الخشبية الضخمة وشروخها على وجه الزمن، وكان يتوقف أحيانا ليتامل فرعا لنبات متسلق، أو منحنى دقيقاً لحدوة حصان قديمة مسمرة بواجهة بيت، أو بروزا خارجا عن السياق لجدار في درب منعزل، مر على مسرح سيد درويش، متجها لشارع النبي دانيال، متوقفا عند مسجد بهذا الاسم، ظل واقفا أمامه وقتا طويلا، ثم انحرف إلى المسرح الروماني، مفكرا في الآثار التي ظلت مدفونة في الأعماق ثم كشفت، اتجه بعدها إلى عمود السواري مستعيدا تاريخ الملك دقلديانوس.. سار وطاف....هنا وهناك.. لكن.. ماالذي يدفعه للطواف ؟؟ لقد ولد في الإسكندرية وعاش فيها، شب وكل ذلك أمامه، فلماذا يعود الآن ويتأملها كأنه يراها لأول مرة ؟؟؟ ما الذي يبحث عنه ؟؟ شعر بأن الإجابة كامنة في أعماق القلب ومستقرة فيه.. لكنها غير واضحة المعالم كان الضباب يغلفها.. فمتى سينقشع هذا الضباب حتى يصل لوضوح الرؤية وعمق اليقين ؟

إن عليه أن يعود إلى لوحته.. لعله يجد شيئا.. شاعرا بشكل غامض إن الضباب لن ينقشع إلا هناك.

×××

جلس أمام اللوحة يتأملها بعمق أكثر، وجه الفتاه وشعرها المبعثر، فستانها الأبيض، كأنه ومضه ضوء تظهر في العتمة، ثم لاحظ وجود خط لم يستكمله عند كتفها، وعندما تفحصه، أدرك أن الخط هو ساعد الفتاة غائصا في الظل، و ممدودا ناحية الوجه الأخر لهذا الشخص الغامض، تمعن فيه الآن بعمق أكثر، وفي لحظة دهشة يكتشف أن الخطوط التي تشكل وجهه، تأخذ منحنيات مألوفة وقريبه الشبه بمنحنيات شخص ما، ودون أن يقترب أو يرسم خطا إذا بالوجه الغامض يظهر شيئا فشيئا من خلال الظلام، كأنه يمنح نفسه الضوء الذي ينعشه، ركبه القلق، وبدا له أن العالم يدلف لمجاهل الصمت، عندما ظهر الوجه أخيرا، انتابه شك، بحث عن مرآة وعاد مرتعدا، راجع خطوط وجهه هو شخصيا في المرآة، مع خطوط الوجه الأخر، .. عاد يتأمل الفتاه، وبشكل ما بدأت الحياة تدب فيها، كانت الفتاه تمد يدها إليه، وعيونها تطلب المساعدة.. فتاة بريئة صغيرة نحيلة، صادفها ذات يوم.. لكنه تجاهل ذراعها الممدودة.. تجاهل الأمل في نظرتها.... وسار مختالا على الطرقات لا يفكر في شيء إلا في فنه... فنه العظيم.. ضحك ساخرا وهو يقف عاريا أمام لوحته.. تلفت حوله ببطء متأملا بقية لوحاته.. خيل إليه أن ضحك الموت يدوى هازئا في إرجاء المكان، فتجمد، وعندما غاص الضحك تدريجيا في أعماق الصمت، ظل واقفا مبهوتا داخل العدم الذي يسحقه، اختنق، فانسحب بضعف إلى الشرفة، استند إلى جدارها متأملا الفجر وهو يطل بإيقاع موسيقى لا ينقطع، أغمض عينيه منصتا بشغف لهمس الهواء، وهو يلامس بحنو أسطح الأشياء، تنفس بعمق عندما وصلت لأنفه رائحة ورود دافئة في أحضان النسمات..